مجلة الحكمة للدراسات الأدبية و اللغوية
Eissn :2600-6421 Issn : 2353-0464
المجلد 10 / العـدد: 03 (2022)، ص: 46- 62

سؤال الهوية والاغتراب في رواية "روح البعد المفقود" لإبراهيم الكوني

The question of identity and alienation in the novel "The Spirit of the Lost Dimension" by Ibrahim Al-Koni

د. أبوبكر خالدي[1]

[1] جامعة الجزائر2 (الجزائر)، aboubakr.khali@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2022/09/16 تاريخ القبول: 18 /2022/09 تاريخ النشر: 2022/09/20

ملخص: تعالج رواية "روح البعد المفقود" لإبراهيم الكوني وهي سيرة رؤيوية مختلف رؤى الكاتب الفلسفية في قالب سردي جمالي، وتعالج مختلف القضايا الفلسفية كالحرية والوجود والجمال والهوية.

نحاول في هذه الدراسة مناقشة رؤية إبراهيم الكوني وتصوره للحرية بالأساس انطلاقا من قضيتي الهوية والاغتراب محاولين في ذلك استنباط رؤيته الفلسفية، وأبرز الملامح التي تتقاطع فيها أفكاره ورؤاه مع الفلسفة؟ ومن ثم معنى المفاهيم السابقة عنده وكيف يؤسس لها ويبررها في روايته.

كلمات مفتاحية: إبراهيم الكوني، روح البعد المفقود، الهوية، الاغتراب، الحرية.

Abstract: The novel "The Spirit of the Lost Dimension" by Ibrahim al-Koni, a visionary biography, deals with the writer's various philosophical visions in an aesthetic narrative form, and deals with various philosophical issues such as Freedom, Existence, Beauty and Identity.

We try in this study to discuss Ibrahim al-Koni's vision and conception of freedom primarily from the issues of identity and alienation, trying to derive his philosophical vision, and the most prominent features in which his thoughts and visions intersect with philosophy ? Hence the meaning of the previous concepts to him and how he establishes and justifies them in his narration.

Keywords: Ibrahim al-Koni, The spirit of the lost dimension, Identity, Alienation, Freedom.

المؤلف المرسل: أبوبكر خالدي،

لم ينفك الكوني أن رأى نفسه كَكُلّ مرة مُغتربا منفيا عن وطنه، كما لم تسلم رواياته الأخيرة من هذه الأفكار والتمثيلات وقد تكررت لفظة الاغتراب في الرواية أكثر من مرة وبأكثر من تعبير. وليس الكوني الذي قال **"الحرية ذلك الإله الذي لا يشرك بنفسه أحدا"** (الكوني، نزيف الروح، 2000، صفحة 86) هو نفسه الذي قد نتوقع منه الإيمان والخضوع لمنطق التقسيمات الجغرافية.

وقد برّر ألكس ميوتشيللي هذا الشعور في كتابه "الهوية" بأنّه: "بعد إتلاف كلّ مشاعر الهوية: إتلاف الشعور بالوحدة، بالتناسق، بالاستقلال الذاتي، بالاختلاف، بالقيمة، بالثقة في النفس... فقد الإنسان المعاصر إمكانية تكوين شعوره بوجوده المبني على "الجهد المركزي" في هذه الحالة وللتغطية على فقدان المعنى شغل نفسه بالعوائق التي تحد من حريته الفردية عبر الاحتجاجات العديدة التي ليست إلا تعبيرا عن عمق أزمة الهوية". (ميوتشيللي، شتنبر2016، صفحة 21)

إنّ فلسفة الكوني تُنَافي كل تَقَيّدٍ والتزامٍ جُغرافي بمكان وهو الذي اعتاد فساحة الصحراء واتساعها، كما لا يعترف هذا الأخير بالتقسيمات الجغرافية التي فرضها بنو جنسه، بحيث يقول في ذلك:

"يستمر غزو الثلوج طوال الأشهر التالية، فيستسلم الألب لمشيئة بيات شتوي طويل: تعيد فيه الطبيعة صياغة خريطة الأرض بما يتماشّى مع ناموسها هي: هذا الناموس الذي لا يقبل التجزئة، أو يعترف بالحدود، ولا بأعراف الخليقة المفتونة بالقسمة، استجابة لنداء الجشع، أو المفروض بأهواء الملكيّة." (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 44) وإن لم يكن يُقِرُ

بِذَلكَ عِلنيا في سيرته الرؤيوية "**روح البعد المفقود**" إلا أنّ تهكُّمَهُ كان صريحًا في هذا الشأن، بدليل قوله:"**تردم الأسوار التي حرص سليل الإنسان أن يجعلها سدًّا في وجه أخيه الإنسان، وتمحو الفواصل المضحكة التي اصطنعها الجار ليفصل بستانه عن الجار...**" (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 44) وكأنّه يزدري والطبيعة هذا الفعل السخيف.

كما يبالغ في ارتباطه بالأرض فيقول: "**فلا تكتفي الطبيعة بهذا الدرس ولكنها تأبى إلاّ أن تسدّ حتى الطرق التي تصلنا بعالم المنطقة السفلى ...في نية لإعادتنا إلى فردوس طبيعتنا الأصلية، عندما كنا مع هذه الأمّ كلّاً حميماً واحداً، قبل أن يحلّ الخلل الجلل، فنغترب عنها لنحيا الانفصام الفاجع.**" (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 44) وهو يرى في عزل الثلوج له عن الأرض اغترابا عنها فرضته عليه الطبيعة.

إنّ الجدل الذي يقوم عليه مصطلح الهوية في الفلسفة أو الأدب عموما هو الإشكال الذي يجعلها عصية على التحديد والتمثيل، بحيث يرى "**فليد حسن محمد الجبوري**" في مقال له بعنوان: "**الهوية المفهوم والأنواع**" بأنّ "**الفلسفة لا تعنى بتوضيح دقائق الأمور وإنّما تزويد المعرفة الإنسانية بمفاتيح الأشياء وتترك مسألة الإبانة والتفريع للعلوم المختصة، ولذا نجد أنّ من يخوض في المصطلحات الفلسفية ودلالاتها يصفها بالغموض وعسر الفهم**" (الجبوري و غازي، 2020، صفحة 24)

وعلى هذا الأساس اعتبر "**ميوتشيللي**" بأنّ مفهوم الهوية يبدو -في العلوم الإنسانية- بمثابة تصور شامل يستخدم في غالب الأحيان بمعان متباينة (ميوتشيللي، شتنبر2016، صفحة 7) لأنّ مصطلح الهوية كما يراها "**هنتنغتون**" يوصف بالمفهوم الغامض ومتعدد الأوجه ولا يسبر غوره. (هنتنغتون، 2005، صفحة 37)

يرى الكوني أنّه يعيش في عالم لم ينتم له يوما، وما الثلوج التي تعزله عن الأرض التي تَنَكّر عنها أمدًا طويلا إلا كابوسٌ فاجعٌ يكتمُ أنفاسَهُ ويشدِّدُ الخِناقَ عليه، وفي ذلك مظهر من مظاهر الاغتراب والحبس في الرواية، فلا هو في أرض الميعاد في صحراءه الكبرى بليبيا موطنه الأصلي؛ وهو يعيش حاليا في سويسرا؛ ولا الثلج تركه يشعر بفعل الانتماء لفردوس طبيعته الأصلية على حد تعبيره: **"فصل البيات الشتوي يلتهم من حياتنا الفسحة الواقعة بين أكتوبر حتى مايو من كل عام، فنحيا سجناء طوال هذا الأمد".** (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 44)

تختلف الأطروحات التي تناولت الحرية كقضية فلسفية بين الحرية كفعل اختيار والحرية كمسؤولية والحرية كاستقلالية إلاّ أنّ ما استثارنا هو ربط **هنري برغسون** الحرية في الأساس بالأحاسيس لا بالجسد، ويشرح ذلك وهو يعيب على الناس التي تجهل المعنى الحقيقي للحرية. كما ويربطها بالشخصية والطبع أكثر مما يربطها بالسلطة القاهرة التي تفرض نفسها على الفرد ويقول:

"كُثُرٌ هُم أولئك الذين يعيشون هكذا ويموتون دون أن يتعرفوا على الحرية الحقيقية...إن التربية مهما كانت سلطوية لن تنقص شيئا من حريتنا، إذا ما مررت لنا أفكارا وأحاسيسا قادرة على التأثير على الروح ككل. كما أنّ الفعل سيكون أكثر حرية من السلسلة الدينامية التي يرتبط بها، والتي تميل أكثر إلى التماهي مع الأنا الأساسية." (برغسون، مقالات في المعطيات المباشرة للوعي، 1889، صفحة 109)

ويضيف في كتاب آخر : **"...باختصار إنّنا نكون أحرارا عندما تصدر أفعالنا عن شخصيتنا الكاملة...فطبعنا هو نحن أيضا"** (برغسون، مقالات في المعطيات المباشرة للشعور، 1991، صفحة 113) ومن هذا نلاحظ بأنّ شعور الكوني بالتقيد نابع من إحساسه بذلك، وتأثير تلك الأفكار على روحه. وعليه

يقسم برغسون الحرية إلى قسمين: **"ولأنه يروم لنا أن نقسم الشخص إلى جزئين، لكي نأخذ وبعين الاعتبار وبشكل تناوبي -من خلال المجهود التجريبي الذي نقوم به- الأنا التي تحس وتفكر من جهة،"** (برغسون، مقالات في المعطيات المباشرة للشعور، 1991، صفحة 113)وهو الحال السائد مع إبراهيم الكوني، باعتبار المسألة أمرا نفسيا؛ **"والأنا التي تتصرف من جهة ثانية، وسيكون من باب الطيش أن نستنتج بأن إحداهما تؤثر على الأخرى. نفس المؤاخذة يمكن أن توجه إلى أولئك الذين يتساءلون هل نحن أحرار في تعديل طبعنا. بالتأكيد فطبعنا يتغير بشكل تدريجي طوال الأيام، وحريتنا تعاني من ذلك."** (برغسون، مقالات في المعطيات المباشرة للشعور، 1991، صفحة 113) وهي نفس الفكرة التي يتبناها **بدوي: "بأنّ هويات الكائنات في تحوّل وتغيير مستمر فكل شيء في سيلان دائم".** (بدوي، 1984، صفحة 534)

نفهم ممّا سبق بأنّ ما يشعر به الكوني من فرط في التقيُّد، نابعٌ من إحساسه الذاتي بذلك حسب رأي "برغسون" وما ذلك إلاّ شعور عابر، فذاته هي المنطلق الأول للحكم على النفس، من خلال الشعورٍ بالحرية أو الشعور بالتقيد، ومنطلق ذلك الإيمان بالتحرر والحرية ويقول "برغسون" في ذلك: **"وحريتنا تعاني من ذلك، خاصة إذا كانت مكتسباتنا الجديدة تنضاف إلى الأنا ولا تذوب داخلها، ولكن ما إن يتم هذا الذوبان، آنذاك يمكن أن نقول بأن التغيير الطارئ على طبعنا، هو تغيير يمسنا، وأننا نتكيف معه "** (برغسون، مقالات في المعطيات المباشرة للشعور، 1991، صفحة 113) ولهذا نجد الكوني لا ينفك يشعر بالاغتراب عن وطنه أينما حل وارتحل لأنه لم يقبل في ذاته التكيف مع المحيط الذي صار يعيش فيه في سويسرا، وبالتالي فاغترابه هنا ذاتي، ومُنطلقُه نفسي، ولا يعدو اغترابه وشعوره بالتقيد شعورا يحكم نفسيته ولا يتحرر منه مهما تنقل عبر الأمكنة حتى يعود لوطنه الأم.

ويواصل برغسون قوله: **"إنّ أطروحة الحرية يمكن التأكد من صحتها، إذا ما قبلنا تحديد هذه الحرية من خلال طبع ما ميز القرار المتخذ، وبالتالي من خلال الفعل الحر. لكن كل من يعتقد بالحتمية عندما يشعر بأن هذه الوضعية تند عنه، فهو يلجأ إلى الإختباء في الماضي أو المستقبل"** (برغسون، مقالات في المعطيات المباشرة للشعور، 1991، صفحة 114) وهو الحال الذي نجده عند إبراهيم الكوني عندما يستذكر الصحراء الكبرى وفعل النفي الذي فرضه عليهم المستعمر الفرنسي ويعتبر الماضي ملجأً لأحاسيسه وشعوره بالاغتراب بقوله: **"...وهو ما سيعني في النهاية أن خروج بني عبران كان تحريراً من عبودية، وخروجاً إلى جنان الحرية، في حين حدث مع قومي العكس: خروجهم كان تحريراً من حرية، ودفعاً إلى جحيم العبودية ...وما طوافي عبر قارات العالم سوى تعبير استعاري عن توقي للعودة إلى أحضان الأم المفقودة، التي لم تكن مرّة سوى فردوسي المفقود..."** (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 44) وهنا يتأسى الكوني الماضي ويَحِنُ إليه في حسرة مما يدل على أنه يلجأ إليه دائما إنكارا لواقعه الأليم على حد قول برغسون، وبالتالي ففي أمل الفرد وحنينه بالمستقبل أو الماضي فهو يُنكرُ واقعهُ المعيش ولا يدعُ نفسه تتكيف معه. ولا تكاد تخلو رواية من روايات الكوني من هذه التعابير التي تدل على حنينه للصحراء الكبرى.

يعيش الكوني وجوده في سويسرا مكرها، وهو يستمرئ ذلك على حد تعبيره، ولا يكاد يجد سببا إلا وبيّن ذلك وآثر التعبير عن اغترابه ومن ثم حنينه لوطنه، وهو يقول: **"فصل البيات الشتوي يلتهم من حياتنا الفسحة الواقعة بين أكتوبر حتى مايو...فنحيا سجناء طوال هذا الأمد. عزلتنا تبدو إجبارية، ولكننا نستمرئها، ربما لأنها تحررنا من الإحساس بوجودنا رهن عالم لم ننتم له يوما، بل لم يكن في حياتنا سوى الكابوس الذي كتم أنفاسنا دوما، ولكننا عدمنا**

الحيلة للتنصل منه وإلاّ لما اخترنا المقام على مناكب هذه الصروح الخرافية التي كانت ولا تزال في نظر الناس منفى: منفي ليس فقط بمنطقتنا نحن المجبولين بطينة جنوب العالم ..." (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 45) والملاحظ من القول أنّ الكوني لم يتكيف يوما مع إقامته الحالية، خاصة وأن لوقع السجن في قلبه أثرا كبيرا في فلسفته هو المجبول في فسيح الصحراء الكبرى والمرهون بها، كيف لا وهو يعلم بأنّ الثلوج ستسجنه قرابة الثمانية الأشهر وكأنّه يقول على حد قول المتنبي **"أنا الغريق فما خوفي من البلل"** (المتنبي، 1983، صفحة 336) لأنّ من غرق في الماء لا يخش البلل. والكوني هو القتيل فما خوفه من الألم، وهو رهن عالم لم ينتم له يوما ولم يتقبله حتى، بمعنى أنّ سجن الثلوج له -وإن كانت إجبارية ويعيشها بمرارة- لن تعادل سجنه الأكبر وكابوسه الفجيع الذي كتم أنفاسه قبل ذلك ولا حيلة له للتملص منه وهو اغترابه عن وطنه.

إنّ الحرية بهذا الشكل تتقاطع مع ما نصه "هارولد لاسيكي" في أنّ **"الحريّة هي: انعدام أي قيود على وجود تلك الظروف الاجتماعية... تتحقق الحرية إذن، حالما تنعدم القيود مما يعني أنّها القدرة على الاتساع واختيار الفرد لطريقة حياته الخاصة دون أي اكراهات تفرض عليه من الخارج"** (لاسيكي، 1978)

يغرق الكوني مرة أخرى القارئ في شعريته، وبلغته الساحرة يُبيّنُ لنا بأنّه حتى الأرض وتغترب عنّا، وهو يصف طبيعة السويسريين وحُبّهم للطبيعة، كيف لا حين يعتقد السويسريون: "...**أن الإنتقال من قرية إلى قرية أبعد منالا في محيط الألب سببا للسخرية.. لأن عملا كهذا في نظر الناس بمثابة خيانة لديانتهم، لأنّ التخلي عن المدن هو تمرد على معتقدهم.."** (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 45) وهذا يعود لشدة تشبثهم بأرضهم وتقديرهم واعتزازهم بالطبيعة.

ويُرجِعُ الكوني سبب نزوح الأفراد عن الطبيعة حسبه إلى: ".. **العولمة وحقن الوجود بفايروس الأمركة فما كان من الطبيعة إلا أن أشاحت بوجهها استحياءً لتزداد بهذا الموقف عن الدنيا اغترابا"** (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 45) وكأنّ الأرض تنكرهم بعد ذلك لإنكارهم لها أما إذا كان لها العكس ووجدت لها محبا **"...واستجار بها مريد، فإنها تهرع لملاقاته بلهفة أم تحتفي بعودة الإبن الضال..."** (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 45) وهو هنا يشير إلى نفسه. ودلاله قوله بالابن الضال؛ ترجع إلى قوله كتم أنفاسنا دوما وهو يحيل إلى الطبيعة المنفى (سويسرا) التي قتلت فيه كل جميل، فلم يعد يستسيغ فيها شيئا، كما ونُحس من قوله، أملا وتطلّعا لعودته للوطن "ليبيا" في يوما ما، هو الذي تنكر عنها منفيا مجبرا حتى صوّر أنّها اعتبرته ابنا ضالا.

إنّ غياب الهوية عند إبراهيم الكوني موتٌ لرُوحِه ولكلِّ جميلٍ في نفسه، ولهذا رجع بعضهم إلى تعريف الهوية بأنّها: **"ما يشكّل جوهر الإنسان ويحفظ خصوصيته"** (الجبوري و غازي، 2020، صفحة 27) ولهذا صار يأمل للموت في وطنه مواصلا قوله السابق: **"فلا تجد ما تفعله به كي تجيره عن منفاه سوى أن تحتضنه لتستودعه بطنها إلى الأبد...شفقة عليهم من جور الوجود"** (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 45) فتحمل العبارة بذلك قراءتين ممكنتين، أولها صريح نُمثّلُهُ بحملات الثلوج الجنونية على جبال الألب، والأخرى ضمنية تبين اغترابه وتوقه للعودة إلى وطنه والفناء فيه، فلا يجد الكوني في الموت سوى ملاذ وأمان على أمل عودته ليدفن في مسقط رأسه يوما ما.

ولهذا كان إبراهيم الكوني يقول **"في الحياة نموت بالجسد، في الموت نحيا بالروح"** (الكوني، نصوص الخلق، 1999، صفحة 100) لأنّه يؤمن أشد الإيمان أنّ **"كل وطن هجرناه هو فردوس مفقود"** (الكوني، نزيف الروح، 2000، صفحة 31) وما عودته إلى فردوسه ولو بالروح ملاذه وأمله، باعتباره مغتربا وميتا

بالجسد الآن. وكأنّ الكوني يوصي بدفنه بعد موته في صحراء ليبيا لعلّ روحه - حسب ما يعتقد- تجد السكينة بعد طول غياب.

يشير المثالان السابقان في لجوء الكوني للماضي الغنّاء وحنينه له وأمله بالمستقبل، إنكارا صريحا لواقعه الحالي، وشعورا باغتراب عميق عن وطنه وهو يبين اعتزازه بوطنه الأم (ليبيا) وانتماءه هوياتيا وروحيا لها. لهذا كان يستأنس في غربته باختلاق **السعادة** بأي طريقة كانت، ويرى في استنبات الورد استنباتا للسعادة، لهذا يستهويه الأمر في أن يقرأ فيها عزلته حيث يقول: "**فهي تستدرجنا لندفن فيها عزلتنا، فتتقبل غربتنا، لتبادلنا بهذه الصفقة غربتها أيضا، تهوّن علينا غربتنا عندما نحاول أن نهون عليها غربتها، فتهرع لنجدتنا لأنّ الجمال بسمتها، بل الجمال رسالتها...**" (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 53)

إنّ ما يمارسه الكوني في سيرته من استحضار لوطنه الأم يعبّر عنه "**عادل ضرغام**" بقوله: "**إنّ الابتعاد عن الوطن والعيش بسلام وأمان، لاسيما بعد اكتساب هوية البلد الجديد، لا يعني إلغاء الوطن الذي صار يحضر ذهنيا، ويتجلى في رصيد من الذكريات، إلا أنّها ليست مجرد ذكريات بقدر ما كانت استراتيجية يمارسها المغترب، وكأنّها محاولة لتثبيت الوطن انطلاقا من قلق الهوية**". (ضرغام، 2010، صفحة 78)

كما ويشير الكوني أنّه حتى الطبيعة وتغترب عن نفسها وتغترب البساتين عن الأرض، لأنّ فعل الانتماء عنده رهين بالإقامة والوجود والاستمتاع بكل ما هو محيط بالشيء في حد ذاته، ففي انعدام تمتع البساتين بالشمس والتراب والأرض التي يرى أنّها "**تجود بها بسمة امتنان للسماء جزاء هبة المعبود**" (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 46) أي أنّ الأرض تجود اخضرارا وتتبسم وردا للسماء. في حين أنّه يعني بالمعبود "الشمس" التي آثر القدماء عبادتها "**نصبها**

الأوائل في ديانتهم معبودا" (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 46) تغترب البساتين والعشب كأي كائن حي في الثلوج ويغترب كل جماد وحي عن الواقع ويقول: **"لم تختف من البساتين فحوى البساتين وحدها، ولكن البساتين نفسها اغتربت عن المكان بعد أن غيبتها الثلوج عن واقع المكان..."** (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 36) بدلالة أنّ الثلوج لا تترك شيئا ولا ترحم حيّا إلا وتخضعه لناموسها.

يصوّر إبراهيم الكوني مرة أخرى **الحرية** التي تخص الحيوان في سيرته بشكل يستحق التأمل والتفكر، بحيث يستدل بذلك في خضم حديثه عن القطة ((فيلو)): **"وكم حاولت مرارا أن تفرض نفسها علينا ضيفا مقيما لولا موقفي المبدئي من سيرة استئناس الحيوانات التي لم تخلق لنستدرجها من فردوسها في الطبيعة الأم إلى معتقلات جدراننا البغيضة"** (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 36) ونفهم من هذا بأنّ للروائي فلسفة خاصة ورؤية معينة من اصطحاب الحيوانات بدليل قوله **موقفي المبدئ**، ثم يضيف قائلا مبررا: **"كأن قدرها أن تدفع ثمن إغترابنا نحن عن الطبيعة فنسجنها معنا ما دمنا قررنا أن نسجن أنفسنا "**[2] بمعنى أنّه إذا كنا قد ارتضينا نحن البشر هجر الطبيعة والاغتراب عنها ففي سجننا للحيوانات عقاب للحيوانات معنا، وفرض لهم هذا السجن، جزاءً لابتعادنا عن الطبيعة الأم.

كما نلاحظ أنّ موقفه من هذا الحكم لم يكن ذاتيا خالصا بدليل قوله في بداية القول بأنّ القطة هي التي ارتضت الإقامة معه ومريم، وإن كان الاستئناس في هذا الحال من الاهتمام بالحيوان لا السجن، إلا أنّ موقفه كان عاما على كل الحيوانات. ولم يكتف بذلك حتى انتقل للنباتات أيضا حيين قال: **"وهو اجترار لسيرتنا مع الكائنات النباتية أيضا التي اعتدنا أن نستقطعها من موقعها الطبيعي في مملكة الطبيعة لنكتم أنفاسنا معنا في حبوسنا المميتة، فلا نكتفي**

بهذا الجرم، ولكننا نحكم حولها الشّرك في قمقم الأوعية، بدل أن ندعها طليقة في أرضها الفسيحة تحت قبّة السماء المشفوعة بالشمس..." (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 46)

إن أكثر ما يلفت الانتباه في أقوال الروائي رؤيته وفلسفته للحرية من خلال كل الصيغ والعبارات التي تُبيّنُ النقيض بقوله؛ معتقلات جدراننا البغيضة وهو لا يرى فرقا في رأيه بين البيت أو المنزل بمختلف أشكاله، والمعتقلات التي تقام في الحروب، أو كالتي يفرضها المستعمر، بما في ذلك السجون بمختلف أنواعها. إلا أنّه لم يقف عند هذا الحد بوصفه للبيوت والمنازل بأنّها حبوس مُميتة فرضَ الإنسان على نفسه المكوث بها، لأنّه يرى بأنّ هذا الأمر جزاء من يغترب عن طبيعته.

يُضيّقُ الكوني الخِناقَ متجاوزا رغبة البشر في قبول الخضوع والعبودية ومبررا إلى فرض ذلك على كل الكائنات الحيّة ويقول: **"...كأننا نتعمد أن نستضيف هذه الكائنات التي كانت يوما ما جزءً منّا، فخذلناها يوم ارتضينا ذل الفرار من الحرية، باختيار الاستقرار بديلاً، وهو ما لم نغتفره لأنفسنا، مما دفعنا لاستدراج كل كائنات الأمم من حيوانٍ ونبات إلى دنيا عبوديّتنا"** (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 47)

لا يختلف اثنان على أنّ الحيوان يعيش مصير المغلوب على أمره حسب ما تفرضه عليه البيئة التي يعيشها من شروط، كما أنّ الحيوانات تستقر كذلك في أوكارها وعرينها وأعشاشها مهما كانت مساحة الفضاء الذي تعيش فيه، إلاّ أنّ الكوني يرى في الفرار من الحرية ذلاّ، وإن كان الإنسانُ يجوب بقدميه الأقطار نهارا، لكنه يسجن نفسه في بيته ليلا على حد تعبير الروائي ويعتبر ذلك جرما يمارسه الإنسان في حق نفسه. ولهذا كان يقول: **"أنبني البيوت لنسكنها، أم نبني البيوت لنموت فيها"** (الكوني، نزيف الروح، 2000، صفحة 36)

كما يرى الكوني بأنّ مكان الإنسان هو الطبيعة وأنّ الاستقرار ضعف وهوان لن يغفره لنفسه. وأعتقد بأنّ الروائي يشير على هذا النحو بشكل ضمني إلى حدائق الحيوان وأشكال السيرك، إلا أنّه وفي اعتقادي لا لوم على من ارتضى استئناسنا من الحيوانات الأليفة إن وَجَدَتْ في ذَلِكَ راحتها ورَضِيَ بها الإنسان أنيسا. بل وتفرض الثقافة الإسلامية الرعاية بالحيوان إذا اقتضت الضرورة، لأنّه من الشائع أنّه إذا زارت بيتك قطة عمياء وجب عليك نفقتها.

فقد ثبت في رياض الصالحين القصة والحديث التالي: إذا لجأت هرة عمياء إلى بيت شخص «وجبت» نفقتها عليه بدين الإسلام. فعَنْ أبي هُريرةَ رضي اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: «**بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ اشتدَّ عليه العطشُ، فوجد بئرًا، فنزل فيها فشَرِبَ، ثم خرج فإذا كلبٌ يلهثُ، يأكلُ الثَّرَى من العَطشِ، فقال الرَّجلُ: لقد بلَغَ هذا الكلبُ من العطشِ مثلَ الذي كان قد بلَغَ منّي، فنزل البئرَ فملأ خُفَّه ماءً، ثم أمْسكَه بفِيه، حتَّى رَقَى فسَقَى الكلبَ، فشَكَرَ له، فغَفَرَ له**» قالوا: يا رسولَ اللهِ إنَّ لنا في البهائمِ أجرًا؟ فقال: «في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ». متفق عليه." (النووي، بلا تاريخ، صفحة 171)

إنّ الغريب في أمر الكوني أنّه يرى في الآخر شرا وفي الحيوان سجنا، فهو يفضل العزلة بأي شكل كان على أن يؤنس نفسه برفيق. بل ويتعدى العزلة والرفق بالحيوان والنبات في أنّه يعتبره نوعا من أنواع الغيرة والحسد فيقول: "... **مما دفعنا لاستدراج كل كائنات الأمم من حيوانٍ ونبات إلى دنيا عبوديّتنا، لا حبّا بها، ولكن انتقاما منها"** وبأسلوب شاعري مغرق يبرّر ذلك: **"لأن من ارتضى لنفسه العبودية قدرا وحده لن يحتمل رؤية الكائن حرّا، لأنه يذكره بهزيمته، فيفعل ما بوسعه كي يستدرجه إلى حضيضه، كي يكون له شريكا في ذلّه"**.... (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 47)

يبدو هذا الموقف لإبراهيم الكوني على درجة من الذاتية وأنه بعيد كل البعد عن الموضوعية لما يتسم به من أحكام مطلقة على البشر، فإذا كانت فلسفته صحيحة في أنّ الأمر ينطبق على حدائق الحيوان والسيرك، إلا أنّني لا أراه ينطبق على من ارتضى الاعتناء بالحيوانات والاهتمام بهم أحسن اهتمام، وبالتالي فلا يوجد استدراج وحضيض ولا نصر وهزيمة في الموضوع ولا حتى ذلّ، فالدوافع الإنسانية والرغبة في هذا الشأن تختلف من شخص لآخر وهي فردية وليست جماعية.

يعتقد الكوني بأنّ الإنسان مُسْتَعبَدٌ مُقيَّدٌ إن هو خرج أو أُخرِجَ من وطنه وبيئته الأم، ويُمثل الكوني ذلك بخروج الليبيين قصرا من وطنهم بفعل فاعل وهو المستعمر الفرنسي من جهة، وخروج بني عبران على حد قوله من مصر نحو أرض الميعاد، فإذا كان يرى في خروج هذا الأخير تحريرا من العبودية إلا أنه يرى أنّ خروج قومه **كان تحريرا من الحرية ودفعا إلى جحيم العبودية** وهو ما يُبرّرُهُ بقولِه السابق حين يُشبِهُ نفسه بهذه الحيوانات أنّه روحٌ منفيةٌ وسجينُ بيئةٍ لا تعنيه فيقول: "**ولهذا السبب لم أر في الكائنات المستأنسة يوما سوى أرواح منفية عن طبيعتها، لأنني لم أرَ نفسي يوما سوى سجين مثلها، وما في طوافي عبر قارات العالم سوى تعبير استعاري عن توقي للعودة إلى أحضان الأم المفقودة، التي لم تكن مرّة سوى فردوسي المفقود: إنها الطبيعة في أكثر أبعادها عفويّة ونبلا وزهداً وربوبية: الصحراء!** (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 38)

تفقد الحرية قيمتها باعتبارها قيمة إنسانية نسبية إذا ما قورنت بقيمة أكبر شأنا كالعدالة والحق والواجب، فالعدالة أحد القيم التي لا يختلف فيها اثنان، وبالتالي فهي قيمة مطلقة لا تقبل الانحياز لفلسفة أو فكر أو إيديولوجيا معينة على عكس الحرية، وقد فصل "دوركهايم-**Durkheim**" في المسألة حين

اعتبر فعل الخير على نقيض ما يعتقده كانط بأنّ الفعل الأخلاقي واجب ولهذا راح يتساءل؛ **"ما هي السمة مميزة للفعل الأخلاقي أو دواعي الالتزام الأخلاقي: إنّ ما يدفعنا للقيام بفعل أخلاقي ما، وإن كنا متحمسين له بقوة يرفعنا خارج ذواتنا ويسمو فوق طبيعتنا، مع العلم أنّ هذا يحتاج إلى جهد وعمل، فالجهد الكلي السامي هو الذي نطلق اسم الخير.." (Durkheim, 2004, pp. 50-51)**

يناقض الكوني نفسه بإعلائه من قيمة الحرية وتمثيل نفسه سجينا كالقطة المحرومة من بيئتها ومن الطبيعة بل وكذلك في توهمه بأنّه ...**سيقترف خيانة في حق معبودته الخالدة الصحراء إذا سمحت لنفسي بالمشاركة في المكيدة المدبّرة ضد كائنات الطبيعة سواء الحيوانية أو النباتية** (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 39) على حد قوله حين أنّه من الواجب عليه رعايتها وهو ما سنستدل عليه من خلال كلامه،...ففي حين ترعى جارته قطتها وتدللها، نصبت القطة ((فيلو)) نفسها على بيته حارسة وهي تقيم على عتبة بابه وهب التي استأنست الإقامة معهم ضيفا، إلا أنّ الأمّر والأدهى تحميله عواقب ما أصاب القطة ((سامبينا)) بقوله **"وتناول الطعوم التي شوّهت فيها الكيان، وأصابتها بعواقب لم تكن التخمة أرذلها، لأن الورم الخبيث ما لبث أن نالها، ولولا التدخل الجراحي في الوقت المناسب لفقدت ((فيلو)) أنيستها الوحيدة من بنات جنسها في عالم الألب الموحش."** (الكوني، روح البعد المفقود، 2018، صفحة 40)

يبدو حديث الروائي هنا على درجة من التحيز لأنّ خوفه من حدوث نفس المصير المشؤوم لقطة الجارة على قطته أعماه على فكرة أنّ القطة لم تجد مكانا آخر تقيم فيه في عالم الألب الموحش على حد قوله، ولكنّه ارتضى لها مصير الألب على أن تقيم في بيته لهوسه بالحرية المزعومة، ومنطقه في العبودية، وهو يتناسى بأنّ الألب ليس بيئتها، وأنها وجدت في بيته مستأنسا وملاذا من عواصف الألب

وتلك البيئة الجليدية. لكنّه لم يرض تقييدها لأنّه يؤمن بأنّ مصيرها المحتوم في ذلك الجو القاسي لا يعنيه فتلك هي الطبيعة، على أن يوفر لها الجو الأنسب في بيته وهي الوحيدة من جنسها في عالم الألب. هذا من جهة. ومن جهة أخرى تفقد الحرية قدسيتها أمام قيمة مطلقة كالواجب، ففي حين أنه لا يرى لنفسه واجبا في رعايتها وهو أقل ما قد يكلفه عناء تربية قطة يرى في الحرية قيمة أعظم شأنا وهي نسبية مقارنة بقيم أعظم شأنا كالواجب والحق.

إنّ **إبراهيم الكوني** بهذا الشكل ليس حرّا حسب بعض المذاهب الفلسفية، لأنّه وكما يرى البعض؛ "لا يمكن أكون أكون حرا بمعنى الكلمة إلا إذا كانت كل الكائنات المحيطة بي حرة هي الأخرى... أجل فأنا لا أصبح حرا إلاّ بحرية الآخرين. **(E.Mounier, 1975, p. 76)** والتي تتقاطع مع مقولة سارتر: **"إنّ الإنسان باعتباره محكوما بالحرية، يحمل على عاتقه عبء العالم ككلّ: إنّه مسؤول عن العالم وعن ذاته من خلال طريقة وجوده.."** (سارتر، 1976، صفحة 612) فالكوني الذي يعلي من شأن الحرية يتناسى بأنّه ملزم برعاية ذلك الكائن الحيّ - كالتزام أخلاقي ووجودي- أكثر ممّا يجب عليه أن يتغنى بالحرية في هذا الشأن.

المراجع

Durkheim, E. (2004). *Sociologie et Philosophie*. Paris: éd PUF.

E.Mounier. (1975). *le personalisme*. paris: éd PUF.

إبراهيم الكوني. (1999). *نصوص الخلق* (المجلد ط1). بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

إبراهيم الكوني. (2000). *نزيف الروح* (المجلد ط1). بيروت، لبنان: دار الملتقى للطباعة والنشر.

إبراهيم الكوني. (2018). *روح البعد المفقود* (المجلد ط1). بيروت، لبنان.

الإمام النووي. (بلا تاريخ). *الألوكة- الشريعة*. تم الاسترداد من شرح رياض الصالحين: https://www.alukah.net/sharia/0/139749/

ألكس ميوتشيللي. (شتنبر2016). *الهوية* (الإصدار 21). (عبد الكريم معروفي، المترجمون) المغرب: سلسلة ضفاف.

المتنبي. (1983). *ديوان المتنبي* (المجلد د.ط). بيروت، لبنان: دار بيروت للطباعة والنشر.

جان بول سارتر. (1976). *الوجود والعدم*. غاليمار.

صاموئيل هنتنغتون. (2005). *من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية*. (حسام الدين خضور، المترجمون) دمشق، سوريا: دار الرأي.

عادل ضرغام. (2010). *في السرد الروائي* (المجلد ط1). منشورات الاختلاف.

عبد الرحمن بدوي. (1984). *موسوعة الفلسفة!* (المجلد ط1). المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

محمد فليح الجبوري، و فوزية لعيوس غازي. (2020). *تمثلات الهوية في السرد الروائي* (المجلد ط1). عمان: الرضوان للنشر والتوزيع.

هارولد لاسيكي. (1978). *الحرية في الدولة الحديثة* (المجلد ط2). (أحمد رضوان عز الدين، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الطليعة.

هنري برغسون. (1889). *مقالات في المعطيات المباشرة للوعي*. منشورات P.U.F.

هنري برغسون. (1991). *مقالات في المعطيات المباشرة للشعور*. غاليمار - لابلياد.